القسطاس المستقيم

الموازين الخمسة للمعرفة

حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

القسطاس المستقيم

(الموازين الخمسة للمعرفة في القرآن)

قرأه وعلق عليه

محمود بيجو

جميع الحقوق محفوظة
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

عدد النسخ (١٠٠٠)

المطبعة العلمية - دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فقد كان المنطق الأرسطويّ الفارس المجلّي في (القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) ، وكان صورة صادقة عن الفلسفة والعلم اليونانيين ، وخاصة في نظرتهما إلى الوجود والمعرفة ، وكانت العقلية الإسلامية تتّسم بنمط تفكيرها الخاص بها ، وصورة لغتها وانبناءاتها الفكرية والإيمانية .

وشاءت إرادة الله أن يكون (الغزالي) من بين مجموعة العلماء المسلمين الذين عاشوا في هذه الحقبة من الزمن . ولقد انبرى كثير من هؤلاء المفكرين إلى معارضة المنطق الأرسطويّ وتسفيهه لأنه يجسد نظرة الفلسفة والعلم اليونانيين إلى الوجود والمعرفة التي تتعارض ونظرة المسلمين إليهما .

وقف (الغزالي) إزاء هذه المشكلة ، وتجاه تحديات معرفية أخرى وقفة المتسائل : هل يمكن استبعاد الثقافة الأجنبية من حياتنا ، على الرغم من فعاليتها واحتوائها كثيراً من وجوه النشاط العقلية المستجدة آنذاك ؟ إضافة إلى أن هذه الثقافة قد تسربت في العقلية الإسلامية وامتزجت بنتاجها الفكري . وهل هناك من سبيل لإحياء الأصول والنصوص بعد خمسة قرون من الهجرة ، تحت وطأة تطور الحياة والعلم وتغيّر المجتمع ؟ .

لعلّ هذا الرجل خير من يمثل لنا عملية الإحياء لهذه الأصول ، والرفض للفلسفة اليونانية ، في منطقه الذي قدمه لنا بصورة موازين وصنجات محدّدة . لقد كان عمله أنموذجاً لكيفية تمثل المنطق في البنية الإسلامية وتطبعه بعناصرها . وكان المنطق عنده أصيلاً نابعاً من أبعاد الخصوصية الذاتية الفلسفية ، وفي الوقت نفسه معياراً وأداة في نتائجه تجعل المعرفة الإسلامية منضبطة محدّدة دون شطط في الاجتهاد والقياس .

إن ما قام به (الغزالي) في تلك الفترة يُعدّ عظيماً ، ولكن السؤال الذي لا يكاد يبين عن نفسه : هل نستطيع في هذا الزمن الذي نحياه أن نعبر ما اجتازه الغزالي في العصر الوسيط ؟ وبين أيدينا هذا الكمّ الهائل من المعاني الجديدة في شتى مجالات الحياة : النظرة إلى الوجود ـ مجال المعرفة المتمثل في مجموعة من المناهج والنظرات المغايرة والمستجدّة واكبت العلم والاكتشاف .

يمكن أن نقول : إننا أمام ثلاث مشاكل مهمة :

- المعرفة الميتافيزيقية والدينية .
- المعرفة الوجودية والمجتمعية .
- مناهج المعرفة .

ونحن نصرّ ـ بادىء ذي بدء ـ على ثبات المعرفة الميتافيزيقية الدينية وديمومتها متمثلة بالإيمان المطلق والتسليم بالله الواحد ، خالق الكون ، وبرسله وأنبيائه ، يضاف إلى ذلك العبادات الروحية التي تقرّ بها نفس الفرد وترضي ضميره بما يتلاءم ورغبته وعلاقته مع ربه . أما مسألتا المنطق وتنظيم الوجود والمعرفة ، فلا بد من تطويرهما تمشياً مع المتغيرات التي لا يمكن رفضها وإنكارها . ويكون ذلك باستلهام العناصر الفاعلة الموجبة في التراث ، واستبعاد العناصر الجامدة تمهيداً لاندثارها . وهذه مهمة أولئك الذين يريدون الإسهام مستقبلاً في إبداع فكري

متساوق مع عالمية العصر الذي نعيش فيه .

أما كتاب (القسطاس المستقيم) الذي نحن بصدد إعادة قراءته وضبطه ، فتميّز بصنيعه المتمثل باستخراج المنهج والقياس فيه من (القرآن الكريم) مباشرة ، فقد جعل التعابير والمعاني المنطقية تستمد من القرآن ، واحتبس مطلوبه بحدود الاستنباط منه منهجاً وبنية .

وقد جاء الكتاب بطريقة الحجاج بين التعليمي[1] والغزالي ، وكان طابعه العام طابع المناقشة بعرض الرأي والرد عليه ، والسؤال والجواب . والذي دفع الغزالي إلى هذا النهج جملة من العوامل :

منها ضرورة استساغة المنطق دينياً ومطابقته مع الشريعة ، والرغبة في الرد على الفرق الدينية الضاغطة آنذاك ، وقد استمد الغزالي أمثلته وشروحه من القرآن الكريم ، وربما خالطت محاولته هذه شيئاً من القسرية . ومع ذلك فيمكن القول : إن الغزالي أبقى على الصورة الأساسية للمنطق فلم تنحرف عن أسسها المأخوذة عن ابن سينا ، وأرسطو ، والفكر اليوناني .

وارتبط غرض (القسطاس) بجعل الميزان منهجاً منصهراً بمادة القضايا اليقينية ، فهو يهدف إلى دحض يقين التعليمية ، ويشدّ الأواصر بين المسألة المنطقية واليقين الإسلامي . وقد نذر نفسه لتلقينه التعليمي أصول المنهج وكيفية الوزن والقياس الصحيح المستند على الدين والمفاهيم القرآنية.وعنده أن الإيمان بقضايا الأصول مصدر لليقين وهي المحصورة في القرآن والسنة « لست أدعو إلى إمام سوى محمد عليه

---

(١) التعليمي : وهو ذاك الذي يتبع الإمام المعصوم . وراجت هذه الفكرة عند غلاة الشيعة والإمامية وغيرهم من الفرق الباطنية التي ماجت بها الأرض الإسلامية منذ الدعوة العباسية ضد الأمويين ، وتوسعت نشاطاتها وتياراتها فيما بعد ، خصوصاً في عصر الغزالي . (المنطق عند الغزالي — د . رفيق العجم) .

السلام ، وإلى كتاب سوى القرآن الكريم ، ومنه أستخرج جميع أسرار العلوم » .

وقد سار الغزالي في (القسطاس) شوطاً عميقاً ، فأثبت المنطق من المعرفة الإسلامية ، إذ الميزان مستمد من القرآن ، ودور القسطاس تعليم الفرد التسلح بالميزان واستعماله في كل مستويات الاستنتاج طلباً للمعرفة . وبواسطة الميزان أيضاً يصل المؤمن إلى معرفة الله تعالى وقدرته وأفعاله ، وإلى معرفة اليوم الآخر والنبوة والوحي بواسطة الملائكة .

ويعتبر (الغزالي) تاريخياً ، أول من أدخل المنطق اليوناني إلى الأصول الإسلامية بشكل عريض وواضح ، وقد هاجمه نتيجة لهذا التوجه منتقدون كثر ، لعل أشدهم كان ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٦ هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) والأرجح أن الغزالي لم ينحرف في إدخاله المنطق على علوم المسلمين ، بل كان غرضه تقوية الاستدلال الإسلامي وضبطه ، وإحداث طفرة جديدة في عملية التعارض الثقافية بين الأصالة والفكر الغربي اليوناني ، ووسمت المنطق باليقين الإسلامي .

والخلاصة : إن منطق الغزالي كان محاولة فريدة متقدمة في الأبحاث الإسلامية ، قفزت في عصرها قفزة منهجية مختلفة عن التجارب المنطقية الباقية ، يضاف إليها أعمال البغدادي والرازي قريبي العهد من الإمام الغزالي ، لكن روح التزمت والتقيد لم تتح لهم تاريخياً النمو والازدهار والتطور . فقد أغلقتها الحرفية والإسمية على السواء . فسقطت دعوى الغزالي من بعده ، ولم تبلغ شأو ما رُسم لها وعُلّق عليها من آمال . وانهارت معها محاولات الدقة العقلية والضبط المعياري المنطقي[1] .

عملنا في الكتاب :

اعتمدنا في إعادة قراءة كتاب (القسطاس المستقيم) .

١ - النسخة المخطوطة الأولى (أ) وهي من المكتبة الظاهرية بدمشق رقم

(١) لقد أفدنا في كتابة هذه المقدمة من كتاب (المنطق عند الغزالي - د . رفيق العجم) .

(٧٧٢٧) وعدد أوراقها (٢٢ ورقة) ليس فيها اسم ناسخها .

٢ ـ النسخة المخطوطة الثانية (ب) وهي أيضاً من المكتبة الظاهرية بدمشق رقم (٧٦٢١) وعدد أوراقها (١٩ ورقة) وليس فيها اسم ناسخها أيضاً .

أما النسخ المطبوعة :

٣ ـ مطبوعة (الترقي) هذه المطبوعة جعلناها أصلاً ثالثاً لأنها مطبوعة ، وليس لها من ميزة سوى ميزة السبق في الطبع . وعلى الرغم من الجهد المشكور الذي بذله القائم على طبع الكتاب ، إلا أنها تكاد لا تخلو من أخطاء مطبعية وكتابية ، وفيها شيء من التصرف .

٤ ـ عُنينا بالتنقيط الذي لا يستهان به للقارىء ، ويعرف ذلك من يقرأ كتاباً خالياً من الفواصل والنُّقط ، ناهيك عن تقسيم الموضوع إلى فقرات . إضافة إلى ذلك عُنينا بردّ الآيات إلى مواضعها من السورة ، وتخريج الأحاديث ـ على قلتها ـ . ثم شرح بعض الكلمات والمصطلحات التي رأينا فيها فائدة ، وكي نوفّر على القارىء مؤونة مراجعة هذه الكلمات والمصطلحات .

والحمد لله تعالى في الأولى والآخرة ، الذي منحنا العون لإنجاز هذا العمل المتواضع لهذا الإمام الكبير . ونرجوه تعالى أن يفيد منه من أراد التأسّي بسيرة هؤلاء الأعلام الذين مهّدوا الطريق ، وتركوا للأواخر مهمة الإبداع والتجديد ، في إطار المحافظة على الأصالة والثوابت دون إشاحة الوجه عن التجديد والإبداع في عالمنا هذا الذي يموج بألوان من الثقافات ، فنأخذ منها ما يتناسب مع تراثنا الروحي والفكري دون تزمّت أو انفلات .

والله يهدي إلى سواء السبيل .

دمشق في ١٠ ذي الحجة ١٤١٣ .

الموافق ٣١ أيار ١٩٩٣ **محمود بيجو**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله تعالى وكفى وصلى على نبيه المصطفى وآله وسلم

هل لكم من بصير في هذه المدينة بشيء من أسماري فقد استبطأني
في بعض أسماري رفيق من رفقاء أهل التعليم وخاصني بالسؤال والجدال فلما
من يتحدى باليمانية والحجة للحمراء وقال لي أراك تدعي كالمزين
فبأي ميزان تزن حقيقة المعرفة أبميزان الرأي والقياس وذلك
غاية التناقض والتباس ولا بد بينهما من الخلاف بين الناس أو بميزان التعليم
فلزمك اتباع الإمام المعصوم المعلم وما أراك تقبل على طلبه بقلبك
أم ميزان الرأي والقياس فحاشى لله أن اعتصم به فذلك ميزان الشيطان
ومن زعم من أصحابي أن ذلك ميزان المعرفة فأسأل الله تعالى أن يكفه
شره من الثقلين فإنه للدين فتنة وبلاء جامل وهو شر من عند وعاقل فلو
وفق لسماع مذهب التعليم لتعلم أقل المجادل من القرآن حيث قال
ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن
وعلم أن المدعو إلى الله بالحكمة قوم وبالموعظة قوم وبالمجادلة قوم فإن
الحكمة أن يغذى بها أهل الموعظة أطفالهم كما يغذى الطفل الرضيع اللبن
بلحم الطير وأن المجادلة أن استعملت مع أهل الحكمة أثمروا عنها
كما يثمر طبع النحل الفوق من الارتضاع لبن الأمهات وأن من استعمل
المجادلة مع أهل المجادلة بالطريق الأحسن كما تعلم من القرآن كان كمن
غذى الصبي بخبز البر وعلمه بالف مثل التمر والمدى بالتمر وهو لم
يالف إلا البر وليته كانت له أسوة حسنة بإبراهيم خليل الله حيث حاج قومه فقال ربي الذي يحيي ويميت فلما رأى أن ذلك
لا يناسبه وليس معناه عندهم حتى قال أنا أحيي وأميت عدل إلى

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام والرئيس الهمام ابو حامد محمد بن محمد الغزالي رحمه الله تعالى احمد الله على
ما الهم واصلي على حبيبه المصطفى ما انشا وابقى واتوكل خوان من يتوكل عليه لا حدثه من اعتماد
وقد استفتيني في بعض اسفاري رفيق من رفقائي جعل التعليم وغامضني بالسؤال
والجدال معارضة من يتدي بالبيضاء والجهة الغراء وقال لي اراك مدلي كما الايمان
بناي ميزان قد تكلت حقيقة المعرفة بكمل ابزار الراي والقياس فذلك في غاية
والايضاح ولا جدال ولا خلاف بين الناس واما ميزان التعليم فيلزمك اتباع الامام المعصوم
والجلوة فاراك عاكفا على تقليد فيكف بامر ميزان الراي والقياس حاش لله ان اعتقد هذا
هذيانا ومن زعم من اصحابنا ان ميزان المعرفة فاستدلال الاذكياء
فخر الدين غاية المجدين صدر بن جاهل ومن شر عدو عاقل يلوم نفسه على سعادة مذهب التعليم
اولا الجدال بالقرآن قال الله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم
بالتي هي احسن وقال الله عز وجل الا الذين ظلموا منهم فالحكمة اما ان تكون
اهل الموعظة اضرت بهم كما ضرت الطفل الرضيع التفقة بل الطير اذا الفى اليها ولدان استعمل
مع اهل الجدل استماتة واعنفها كاستماتة طبيب الجهل العقوق عن الارتضاع بلبن الادوية
وانما يستعمل الجدال مع اهل الجدل لا بالطريق الاحسن كما امرنا في القرآن كما ان غذاء
بخبز البر وهو لم يأت الا البزر والبلدي بالبزر وهو لم يأت الا البزر ولبسه كانت اسوة
حسنة بابراهيم الخليل صلوات الله عليه حيث احاج خصمه فقال ربي الذي يحيي ويميت
فقال ابراهيم انا ايضا احيي واميت فاحضر رجلين فقتل احدهما واحيى الميت عند ذلك

بسم الله الرحمن الرحيم

وإياه نستعين

الباب الأول

توطئة في موازين المعرفة

القسطاس المستقيم[1]

قال الشيخ الإمام والمرشد الهُمام[2] أبو حامد محمد بن محمد الغزالي رحمه الله تعالى[3] : أحمد الله تعالى أولاً ، وأصلّي على رسوله[4] المصطفى ثانياً وأقول :

إخواني ! (هل فيكم)[5] من يعيرني سمعه لأحدّثه بشيء[6] من أسماري[7] ، فقد استقبلني في بعض أسفاري رفيق من رفقاء أهل التعليم ، وغافَصَني[8] بالسؤال والجدال مغافصة من يتحدّى باليد البيضاء والحجّة الغرّاء[9] ، وقال لي : أراك تدّعي[10] كمال المعرفة ، فبأي ميزان تزن حقيقة المعرفة ، أبميزان الرأي

---

(١) القسطاس المستقيم : أضبط الموازين وأقومها (ميزان العدل) .

(٢) الهُمام : السيد الشجاع السخيّ .

(٣) إلى هنا ساقط من (أ) والزيادة من (ب) .

(٤) في (ب) على نبيه .

(٥) ساقطة من (ب) .

(٦) سقطت من (ب) .

(٧) السّمر : حديث الليل (ج) أسمار .

(٨) غافصهُ مغافصة وغِفاصاً : فاجأه وأخذه على غرة فركبه بمساءة .

(٩) الحجة : بضم الحاء : الدليل والبرهان . والغرّاء : البيضاء .

(١٠) في (ب) مدّعي .

والقياس ، وذلك[1] في غاية التعارض[2] والالتباس[3] . ولأجله ثار الخلاف بين الناس أم بميزان التعليم ؟ .

فيلزمك اتباع الإمام المعصوم[4] المعلّم وما أُراك تحرص على طلبه ؟ .

فقلت : أما ميزان الرأي والقياس فحاشى لله[5] أن أعتصم به ؛ وهو ميزان الشيطان ، ومن زعم من أصحابي أن ذلك ميزان المعرفة ، فأسأل الله تعالى أن يكفّ شرّه عن الدين ، فإنه للدين صديق جاهل ، وهو شرّ من عدوّ عاقل . فلو رزق سعادة مذهب التعليم ، لتعلّم أولاً الجدال من القرآن الكريم ، حيث قال الله تعالى : ﴿ ادعُ إلى سبيل ربك[6] بالحكمة[7] والموعظة الحسنة[8] وجادلهم بالتي هي أحسن[9] ﴾ . وعلم أن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم ، وبالموعظة قوم ، وبالمجادلة قوم . فإن الحكمة إن غُذي بها أهل الموعظة أضرّت بهم ، كما تضرّ الطفلَ الرضيع التغذيةُ بلحم الطير ، وأن المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اشمأزّو[10] منها ، كما يشمئز طبع الرجل القوي من الارتضاع بلبن الآدمي ، وأن من استعمل

---

(١) في (ب) فذلك .

(٢) التعارض : التناقض .

(٣) التبس عليه الأمر : أشكل واختلط .

(٤) العصمة : المنع والحفظ مادياً ومعنوياً من الموبقات ، ولا تكون إلا في الأنبياء .

(٥) حاشَى لله : تنزيهاً له عما لا يليق .

(٦) سبيل ربك : أي دين ربك وهو الإسلام .

(٧) الحكمة : وضع الشيء في محله .

(٨) الموعظة الحسنة : ما تضمنه الكتاب العزيز من الرغبة والرهبة والإنذار . مع إيقاف خصمك على خالص نصحك له .

(٩) الآية ١٦ من سورة النحل .

(١٠) اشمأزّ من الشيء : كرهه وضاق به .

الجدال مع أهل الجدل لا بطريق الأحسن كما نطق القرآن[1] ، كان كمن غذا[2] البدويَّ بخبز البُرّ[3] وهو لم يألف إلا التّمر ، أو البلديَّ بالتمر وهو لم يألف إلا البُرّ . وليته[4] كانت له أسوة[5] حسنة في إبراهيم الخليل ـ صلوات الله عليه ـ حيث حاجَّ خصمه[6] ، فقال : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾[7] فلما رأى ذلك لا يناسبه وليس حسناً عنده ، حتى قال : ﴿ أنا أحيي وأميت ﴾[8] ، عدل[9] إلى الأوفق لطبعه والأقرب إلى فهمه فقال : ﴿ إن الله يأتي بالشمس من المشرق فائت بها من المغرب فبُهت الذي كفر ﴾[10] ، ولم يركب الخليل ظهر الحجاج[11] في تحقيق عجزه عن إحياء الموتى ؛ إذ علم أن ذلك يعسر عليه فهمه ، فإنه[12] ظنّ أن القتل إماتة من جهته ، وتحقيق ذلك لا يلائم قريحته[13] ، ولا يناسب حدَّه في البصيرة[14] ودرجتَه .

---

(١) في (أ) كما تعلم من القرآن .

(٢) غذاه : أطعمه .

(٣) البُرّ : حب القمح .

(٤) ليته : الضمير يعود إلى من زعم من أصحابي .

(٥) الأسوة والإسوة : القدوة .

(٦) وهو نمرود الجبار وكان ملكاً على بابل والأهواز وسواد العراق .

(٧) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

(٨) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

(٩) عدل إليه : رجع .

(١٠) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

(١١) الحجاج : المجادلة . وفي (أ) اللّجاج : وهو التمادي على الشيء .

(١٢) الضمير يعود إلى نمرود .

(١٣) القريحة من الإنسان : طبيعته التي جبل عليها .

(١٤) البصيرة : قوة الإدراك .

ولم يكن في قصد الخليل إفناؤه[1] ، بل إحياؤه والتغذية بالغذاء الموافق له إحياؤه ، والحجاج[2] بالإرهاق[3] إلى ما لا يوافق إفناء . فهذه دقائق لا تدرك إلا بنور العلم[4] المقتبس من إشراق عالم النبوة ، فلذلك حُرموا التفطّن له ، إذ حُرموا سرّ مذهب التعليم .

فقال : إذا استوعَرْتَ[5] سبيلهم واستوهنْت[6] دليلهم فبماذا تزن معرفتك ؟ فقلت : أزنها بالقسطاس المستقيم ليظهر لي حقُّها وباطلها ومستقيمها ومائلها ، اتباعاً لله تعالى وتعليماً من القرآن المنزل على لسان نبيه ﷺ حيث قال : ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾[7] . فقال : وما القسطاس المستقيم ؟ فقلت : هي الموازين الخمسة التي نزّلها[8] الله تعالى في كتابه ، وعلّم أنبياءه الوزن بها . فمن تعلم من رسول الله ووزن بميزان الله فقد اهتدى . ومن مال[9] عنهما إلى الرأي والقياس ، فقد ضلّ وتردّى[10] .

فقال : أين الميزان في القرآن وهل هذا إلا إفك وبهتان[11] ؟ . فقلت : ألم تسمع قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ الرحمٰن علّم القرآن . خلق الإنسان علّمه

(١) أي القضاء عليه بإفحامه بالمناظرة .
(٢) في (أ) اللُّجاج .
(٣) الإرهاق : حمل الإنسان على ما لا يطيق .
(٤) في (أ) التعليم .
(٥) استوعر الطريق وجده وعراً .
(٦) استوهنه : وجده ضعيفاً .
(٧) الآية ٣٥ من سورة الإسراء والآية ١٨٢ من سورة الشعراء .
(٨) في (أ) أنزلها .
(٩) في (أ) عدل . وعدل : حاد ومال .
(١٠) تردّى في الهوّة ونحوها : سقط .
(١١) الإفك : الكذب أو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء .
والبهتان : الكذب المفترى والافتراء الباطل يُتحيّر من بطلانه .

البيان ... ﴾ إلى قوله : ﴿ ووضع الميزان[1] ، ألّا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسروا الميزان ﴾[2] . ألم تسمع قوله في سورة الحديد : ﴿ لقد أرسلنا رسلَنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾[3] . أتظن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان البُرّ والشعير والذهب والفضة ؟ أم تتوهّم أن الميزان المقابل وضعه برفع السماء في قوله : ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ هو الطيار والقبّان ؟ ما أبعد هذا الحساب[4] ، وأعظم هذا البهتان ! اتق الله ولا تتعسّف[5] في التأويل ، واعلم يقيناً أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله تعالى ، ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله وملكه وملكوته ، فتتعلّم[6] كيفية الوزن من أنبيائه كما تعلّموا هم من ملائكته .

فالله تعالى هو المعلم الأول ، والثاني جبريل ، والثالث الرسول ﷺ . والخلق كلهم يتعلمون من الرسل ، ليس لهم طريق إلى المعرفة إلا بهم . فقال : فبماذا تعرف أن ذلك الميزان صادق أم كاذب ، أبعقلك ونظرك . فالعقول متعارضة ، أم بالإمام المعصوم القائم بالحق في العالم وهو مذهبي الذي أدعو إليه ؟ فقلت : ذلك أيضاً أعرفه بالتعليم لكنْ من إمام الأئمة (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب) ﷺ . فإني وإن كنت لا أراه فإني أسمع تعليمه الذي تواتر تواتراً[7] لا أشك فيه . وإنما

---

(١) ووضع الميزان : أي العدل في الأرض .

(٢) من الآية ١ من سورة الرحمن .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الحديد . والقسط : العدل .

(٤) في (أ) الحسبان .

(٥) تعسّف في الكلام : تكلف . وتعسّف الطريق وعن الطريق : سار فيه على غير هدىً .

(٦) في (أ) لتتعلم .

(٧) تواترت الأنباء : جاءت متتابعة متواترة وبينها فترات . والمتواتر من الخبر أو الحديث : ما رواه جمع عن جمع لا يُخشى تواطؤهم على الكذب .

تعليم القرآن وبيان صدق موازين القرآن معلوم من نفس القرآن صحته وصدقه . (فقال : هات برهانك[1] وأخرج من القرآن ميزانك ، وأظهر لي كيف فهمت من نفس القرآن صدقه وصحته)[2] فقلت له : حدثني أنت بم تعرف صحة ميزان الفضة والذهب وصدقه ، ومعرفة فرض دَيْنك إن كان عليك دين حتى تقضيه تاماً من غير نقصان ، أو كان لك على غيرك دين حتى تأخذه عدلاً من غير رجحان ، وإذا دخلت سوقاً من أسواق المسلمين وأخذت ميزاناً من الموازين وقضيت واقتضيت الدين[3] ، فبم تعرف أنك لم تَظلم بنقصان في الأداء أو برجحان في الاستيفاء[4] ؟ . فقال : أحسن الظن بالمسلمين وأقول : إنهم لا يشتغلون بالمعاملة إلا بعد تعديل الموازين ، فإن عرض لي شكّ في بعض الموازين ، أخذته ورفعته ونظرت إلى كِفّتي الميزان ولسانه ، فإذا استوى انتصاب اللسان من غير ميل إلى أحد الجانبين ، ورأيت ـ مع ذلك ـ تقابل الكِفّتين عرفت أنه ميزان صحيح صادق .

قلت : هبْ[5] أن اللسان انتصب على الاستواء ، وأن الكِفّتين تحاذتا بالسواء ، فمن أين تعلم أن الميزان صادق ؟ قال : أعلم ذلك علماً ضرورياً يحصل من مقدّمتين : إحداهما تجريبية والأخرى حسّيّة . أما التجريبية فهي أني علمت بالتجربة أن الثقيل يهوي إلى أسفل ، وأن الأثقل أشدّ هُويّاً ، فأقول : لو كانت إحدى الكِفتين أثقل لكانت أشدّ هويّاً . فهذه مقدمة كلية تجريبية حاصلة عندي ضرورة . والمقدمة الثانية : أن هذا الميزان بعينه لم تهوِ إحدى كِفّتيه ، بل حاذت

---

(١) البرهان : الحجة البينة الفاصلة .

(٢) ما بين قوسين ساقط من (ب) .

(٣) قضى الدينَ : وفاه ـ واقتضى الدينَ : طلبه وقبضه .

(٤) استوفى منه حقه : أخذه كاملاً لم ينقص منه شيء .

(٥) يقال : (هبني قلت كذا) : أي احسبني واعددني وتستعمل أحياناً لمجاراة الخصم .

الأخرى محاذاةَ مساواةٍ . وهذه مقدمة حسّية شاهدتها بالبصر ، فلا أشك في المقدمة الحسّية ولا في الأولى وهي المقدمة التجريبيّة ، فيلزم في قلبي من هاتين المقدمتين نتيجة ضرورية وهو استواء الميزان ؛ إذ أقول : لو كانت إحداهما أثقل لكانت أهوى . ومحسوس أنها ليست بأهوى ، فمعلوم أنها ليست بأثقل . قلت له : فهل هذا إلّا[1] رأي وقياس عقلي ؟ قال : هيهات[2] فإن هذا علم ضروري لزم من مقدّمات يقينية ، حصل اليقين بها من التجربة والحسّ فكيف يكون هذا رأياً وقياساً ؟ والقياس حَدْسٌ[3] وتخمين لا يفيد برد اليقين . وأنا أحسّ في هذا برد اليقين . قلت : فإن عرفت صحة الميزان بهذا البرهان ، فبم تعرف الصَّنْجة[4] والمثقال[5] ؟ فلعله أخف أو أثقل من المثقال الصحيح . فقال : إن شككْتُ في هذا أخذت عيارة من صنجة معلومة عندي فأقابلها بها ، فإذا استوى علمت أن الذهب إذا ساواه ، كان مساوياً لصنجتي ؛ فإن المساوي للمساوي مساوٍ .

قلت : وهل تعلم واضع الميزان في الأصل من هو ؟ وهو الواضع الأول الذي منه تعلم هذا الوزن ، قال : لا ، ومن أين أحتاج إليه ، وقد عرفْتُ صحة الميزان بالمشاهدة والعيان ؟ بل آكل البقل من حيث يؤتى به . ولا أسأل عن المَبْقلة[6] ، فإن واضع الميزان لا يُراد لعينه بل يُراد ليُعرف منه صحة الميزان وكيفية الوزن . وأنا قد عرفْتُه كما حكيْتُه وعرّفته واستغنيت عن مراجعة واضع الميزان عند كل وزن ؛

---

(١) سقطت من (أ) .

(٢) هيهات : اسم فعل ماض بمعنى بعُد .

(٣) الحدْس : الظن والتخمين . وفي الفلسفة : المعرفة الحاصلة في الذهن دُفعة واحدة من غير نظر أو استدلال عقلي .

(٤) الصّنجة : كِفّة الميزان (خلافاً لما يقصده المؤلف . فهو يقصد بها هنا المعيار) .

(٥) المثقال : وزن صغير . ومثقال الشيء : ما وازنه في الثقل .

(٦) المَبقلة : الأرض يكثر فيها البقل .

فإن ذلك يطول ولا يُظفر به كل حين ، مع أنّي في غُنْيةٍ[1] عنه .

قلت : فإن أتيتك بميزان في[2] المعرفة مثل هذا وأصحّ منه ، وأزيد عليه بأن أعرف واضعه ومعلمه ومستعمله ، فيكون واضعه هو الله تعالى ، ومعلمه جبرائيل ، ومستعمله الخليل ومحمد وسائر النبيين[3] عليهم السلام أجمعين ، وقد شهد الله تعالى لهم في ذلك بالصدق ، فهل تقبل ذلك منّي ؟ وهل تصدّق به ؟ فقال : كيف لا أصدق به إن كان في الظهور مثل ما حكيت لي ؟ فقلت : الآن أتوسّم[4] فيك شمائل الكياسة[5] . وقد صدق رجائي في تقويمك وتفهيمك حقيقة مذهبك في تعليمك ، فأكشف لك عن الموازين الخمسة المنزلة في القرآن لتستغني بها عن كل إمام ، وتجاوزَ حدّ العميان ، فيكون إمامك المصطفى ﷺ وقائدك القرآن ومعيارك المشاهدة والعِيان .

فاعلم أن موازين القرآن في الأصل ثلاثة :

ميزان التّعادل ـ وميزان التلازم ـ وميزان التّعانـد . لكـن ميـزان التعـادل ينقسم إلى ثلاثة أقسام : إلى الأكبر ، والأوسط ، والأصغر ، فيصير الجميع خمسة .

---

(١) الغُنْية : الاستغناء .

(٢) ساقطة من (ب) .

(٣) في (أ) الأنبياء .

(٤) يقال : (توسم فيه الخير) ، أي تبين فيه أثره .

(٥) شمائل الكياسة : الشمائل : الطباع . والكياسة : الظّرف والفَطانة في استنباط ما هو أنفع .